



استعاد السوريون في الجمعة الأولى التي أعقبت الهدنة الموقتة، أجواء أعراضهم الوطنية الكبرى الجامدة التي عمّت وطنهم في السنة الأولى للثورة. فقد خرجت التظاهرات السلمية في مختلف المناطق، وجدد المشاركون فيها مطلبهم العادل الرئيس المتمثل في نظام يضمن حرية وكرامتهم ومستقبلًا أفضل لأجيالهم المقبلة. وذلك لن يكون من دون إسقاط النظام الاستبدادي الإفاسي، المسؤول الأول عن كل ما لحق بسوريا والسوريين قتلاً وخراباً وتدmerاً.

واللافت في هذه التظاهرات، عودة علم الاستقلال ليرفف زاهياً شامخاً بوصفه الرمز الذي تواافق عليه السوريون، ويزبح جانباً كل الرياحات الواقفة التي جلبتها أغраб نزو عقد مرضية، ومشاريعهم وحساباتهم التي تتناقض بالطلاق مع آمال السوريين وططلعاتهم. عاد علم الاستقلال ليؤكد مجدداً أنه رأية المطالبين بالحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية لكل السوريين من دون استثناء، رأية الداعين إلى القطع النهائي مع سلطة الاستبداد والإفساد في كل أشكالها وصيغها.

ولعوده علم الاستقلال إلى صدارة المشهد دللات كبرى على إصرار السوريين، بعد خمس سنوات من تجربة مريرة اختلط خلالها الحلم بالألم، والأمل بالإحباط، والثقة مع التوجس. خمس سنوات أدرك السوريون بحصيلتها، أن مصير أبنائهم وأحفادهم وأجيالهم المقبلة مسؤوليتهم الأولى وقضيتهم المحورية التي لا تمتلك أي اعتبار في حسابات الآخرين ومصالحهم، الذين تبنّوا استراتيجية النظام وحلفائه، وأعطوا الأولوية للإرهاب العرضي الفرعوي، وغضّوا الطرف عن الإرهاب الجوهري المركزي، وهو إرهاب النظام الرسمي المنظم، الذي كان وما زال أساس كل الإرهاب في المنطقة.

لقد أثبتت السوريون، عشية احتفالهم بالذكرى الخامسة لاعظم ثورة في عالمنا المعاصر، أنهم ما زالوا على العهد في مواجهة الإرهاب الرسمي والإرهاب الظلامي. كما أكدوا أن ما يتطلعون إليه يتناقض تماماً مع المشاريع المذهبية الطائفية الانعزالية

البغضة في كل أشكالها ومسمياتها، وهم يدركون بحسهم السليم وبالبرهان والدليل، أن أصحاب تلك المشاريع المتناقضة ظاهراً يتداولون النسق والأدوار بينهم.

لقد عمل النظام كل ما كان في وسعه لإلصاق تهمة التشدد والإرهاب بالثورة، وتشويه سمعتها، كما استقدم كل شذوذ الآفاق، بالتنسيق مع الحليف الإيراني، لمحاربة المعارضين، ودفع الأمور نحو فوضى عارمة منظمة، ليقدم نفسه بوصفه البديل الأفضل، أو الأقل خطورة. وقد حرص دائماً بكل إمكاناته، على إبعاد العلوبيين والكرد والمسيحيين والدروز من الثورة، ليتمكن من تسويق استراتيجية القائمة على زعم مفاده أن ما يجري في سوريا لا يخرج عن نطاق صراع على السلطة بين متشددي المكون العربي السنّي والسلطة «العلمانية حامية الأقليات».

ونجح النظام إلى حدٍ كبيرٍ في تسويق هذا الزعم نتيجة أخطاء المعارضة من جهة، وتقاطع المصالح مع المتحكمين بتفاصيل المجتمع الدولي من جهة ثانية.

لكن السوريين الغيارى في الوطن الجريح أكدوا ببساطتهم وعفويتهم، بصدقهم وتحملهم، بصدقهم وإخلاصهم، وبما لا يدع مجالاً للشك، أن إمكان استعادة الوجه المشرق للثورة مسألة واقعية شرط توافر الإرادة والقدرة على التعبير.

يحتفل السوريون والسوريات بأساليبهم الإبداعية بالذكرى الخامسة لثورتهم، وهم في خشية حقيقة مما يدبر لهم ولبلدهم. فهناك من يتحدث عن إمكان فرض تقسيم جديد لا يراعي مصالحهم الحقيقة، بل يرتكز على حسابات ومصالح من يخطط ويشرف على تنفيذ ما يُحضر له، وإذا تحقق لهؤلاء ما يريدونه ستكون الحصيلة في نهاية المطاف جملة كيانات هشة متنازعة، تعتمد في وجودها على القوى الدولية والإقليمية وتلتزم سياساتها ومصالحها. كيانات قد توحى بأنها الحل، لكنها في الحقيقة بداية لمشكلات كبرى، تعيد المنطقة قروناً إلى الوراء، وتتسرب بتبديد إمكاناتها البشرية والمادية.

الحل الأمثل بالنسبة إلى السوريين، كل السوريين، التمسك بالمشروع الوطني المدني الديموقراطي الذي يحترم حقوق سائر المكونات والأفراد وخصوصياتهم، ويلغي كل أشكال التمييز والتمييز، ويعتمد النظام الإداري الذي يعطي صلاحيات واسعة للسلطات المحلية المنتخبة، فيما يقتصر دور المركز على توفير مقومات التنسيق والتكامل، والمساعدة في ميدان العمل لحل المشكلات، وتمثيل البلاد على المستوى الدولي.

ومثل هذا المشروع سيجعل من سوريا عامل استقرار في المنطقة بأسرها، وستصبح بموجبه جسراً للتواصل بين الجميع، محتفظة بكل أبنائها، بل فاتحة أحضانها لأولئك الذين أرغمتهم الظروف على الرحيل.

المكونات المجتمعية السورية على اختلاف مذاهبها وأديانها وقومياتها وتوجهاتها تستطيع التعايش، بل ترغب فيه، وتعمل له. أما النظام وأتباعه، فيدفعون الأمور في الاتجاه المعاكس، بقاءً في سوريا «المفيدة» بعدما تيقن من استحالة استمراره على مستوى سوريا كلها.

سورية المدينة الديموقراطية العادلة الموحدة هي لمصلحة الجميع من دون استثناء. وللمصالح في عصرنا هذا الأولوية، أما المشاعر والأحساس والنزعات الوج다ًنية فتبقى من عالم الداخل، عالم الأحلام والآمنيات والرغبات، الذي يمكن أن يغدو واقعاً في حال تقاطعه مع المصالح.

الثورة السورية في طريقها نحو استعادة ألقها ورونقها بعد تجربة مريرة ألمة مع الاستبداد والإرهاب. لكن هذا لن يتحقق من دون تضافر جهود سائر السوريين، وخاصة المفكرين والمتقين والإعلاميين ورجال الأعمال والعامليين في إطار منظمات المجتمع المدني. والشعب السوري سيتجاوز بفضل نضال أبنائه وتضحياتهم، محنته وهو أكثر وعيًّا وخبرة بقضايا

ومشكلاته، وأقدر على وضع الحلول الواقعية الم موضوعية لها بعيداً من منطق التغيب والانتقام والرها ب والإرهاب. سورية التي عرفناها وتباهينا بها باستمرار، وضحى في سبيلها شعبنا بأعز ما يملك، لن تعود إلا بكل أبنائها ولكل أبنائها.

الحياة اللندنية

المصادر: